من تراب الطريق! (٢٦١)

زاهد عفيف (*)

من الزمن البعيد

فى زيارة لعمر بن الخطاب للشام، يتفقد فيها أحوال الرعية ومسار الولاة، سأل أهل حمص عن رأيهم فى واليهم سعيد بن عامر، فأثنوا عليه، ولكنهم أفصحوا أنهم يستغربون منه أربعة أشياء لا يجدون لها تفسيرا ! فهو لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، فسأله عمر عما يؤخره فى الخروج، فأجابه بأنه ليس لأهله خادم، ولذا فهو يعجن عجين بيته حتى يختمر، ثم يخبز خبزه، ثم يتوضأ للضحى ويخرج إليهم !

فسأل عمر عن الثانية، فقيل له إن الوالى لا يجيب أحداً بليل، فاستفسر منه عمر، فأجابه بأنه قد جعل النهار لهم وجعل الليل لربه .

والثالثة، ماهى: قيل لعمر إن له فى الشهر يومين لا يخرج فيهما ولا يراه الناس حتى آخر النهار، فطفق ابن عامر يفسر ما غمض من أمر احتجابه يومين فى الشهر، فهو لا خادم له يغسل ثيابه، ثم هو ما عنده ثياب يبدلها، فيغسل ثوبه وينتظر حتى يجف ثم يخرج إلى الناس فى آخر النهار.

فسأل عمر عن الرابعة : قال أحدهم : إنه تأخذه الغشية بين الحين والحين، فسأله عمر عما به حتى تأخذه هذه الغشية، فقال لعمر : تعلم ياأمير المؤمنين أننى شهدت مصرع خُبيب الأنصارى بمكة، وقد بضعت قريش لحمه وحملوه على جذعه . فقال له عمر : صدقت . فاستأنف ابن عامر يقول فى أسًى : كانوا يقولون له يومها : أتحب أن محمدا مكانك

(*) المال١٨/٥/٢٠٠٩

وأنت سليم معافى، فكان يجيبهم : والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى، معى عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة .

أضاف سعيد بن عامر : فكلما ذكرت يا أمير المؤمنين ذلك المشهد الذى رأيته، وأنا يومئذ من المشركين، وتذكرت تركى يومها نصرة خبيب، أرتجف خوفا من عذاب الله .. ويغشانى هذا الذى يغشانى .

* * *

ما ذكرت هذا الموقف بين عمر وعاملِه التقى العفيف الزاهد إلاَّ وهزنى من الأعماق هزا .. أين نحن من هذا الزمن، ومن هؤلاء الناس ؟! أين ولِّى هذا العفاف الزاهد الذى جعل الوالى يخبز عيش بيته بيده، ويغسل ثوبه الوحيد بنفسه وينتظره حتى يجف، ويمضى الليل قائما فى عبادة ربه، ثم لا يطوف به طيف ما حدث يوم مصرع خبيب بن عدى، حتى تأخذه الرعدة ويتغشاه ما يتغشاه ندما على عدم نصرته إياه، وخشية من عذاب الله.

لا مراء فى روعة هذه المواقف فى زمانها .

ولكن هل عناصر هذه المواقف الرائعة الأربعة مناسبة بشكلها - ولا أقصد جوهرها - لتحمل ذات المعنى وذات الأثر فى زماننا ؟! لقد كتبت من سنوات أن قيمة هذه المواقف فى المعنى والجوهر لا فى الشكل والصورة، فقيم الزهد والعفاف والاستقامة لا تتغير، ولكن قد تتغير الصور دون أن تفارق هذه القيم . بل قد يعد الالتزام الحرفى بالصورة مجافيا لا يحقق فى الحاضر ما كان يعنيه ويحققه فى الماضى .

إذا استثنينا العبادة والقيام ليلا لله تعالى، واستثنينا ما كان يتغشى الوالى حين يذكر مشهد مصرع خبيب، فهو أمر لا حيلة له فيه، فإن " صور " الزهد فى العجين والخبيز وغسل الثوب وانتظار جفافه لأنه الوحيد، لا تحمل فى زماننا ذات الأثر، بل قد لا تعد فى باب المكارم المطلوبة .

أجل مطلوب من كل صاحب ولاية ألاَّ يسرف فى الخدم والحشم، أو

فى اقتناء الثياب التى تملأ صفحة الأفق، فذلك إسراف وتفريط يناقض العفاف والزهد فى كل زمان .. ولكن ما استوقفنى، هل يمكن لصاحب ولاية فى زماننا أن يترك قضايا وهموم الناس التى تزاحمت مع إيقاع العصر على خلاف ما كان فى زمن هؤلاء الراشدين، ويجلس فى بيته ليعجن ويخبز ويغسل وينتظر جفاف ثوبه الوحيد حتى يلبسه ويخرج إلى الناس ؟! كانت هذه ولا شك مكرمة رائعة فى زمن الراشدين، حيث كانت بساطة الحياة وقلة المشكلات تسمح بهذه الصور المبهرة للعفاف والزهد دون أن تتأثر مصالح الرعية أو تتأخر واجبات رعاية الأحوال، بيد أن اليوم لم يعد فى أحواله ومشاكله كالأمس، وما كان بوسع الناس انتظاره فى الزمن البعيد لم يعد ممكنا احتماله فى زحام ومعضلات وأحوال الحاضر . الأجدى للناس أن يكون للحاكم مصدر - معقول - للنهوض بأعمال بيته، وثياب كافية - معقولة - تتيح له أن يكون بين الناس قائما برعاية شئونهم، فهذا أجدى وأنفع لهم من الصورة البعيدة الرائعة التى لم يعد تزاحم مشاكل العصر يسمح بتكرارها .

ما أردت أن أقوله إن " القيم " باقية خالدة، ولكن " الصور " المعبرة عنها متغيرة تبعا لتغير ظروف وأحوال واحتياجات الزمان . ومن الوهم أن نتخيل أننا يمكن أن نسترد الماضى بكل ما فيه، وأن نزهو بتطبيقه حرفيا كما كان ! من الواجب نعم أن يبقى التزامنا بالقيم، ولكن هناك من الصور الرائعة فى زمانها - ما قد يعد التزامها الآن ضررا محققا وابتعاداً لا شك فيه عن مقتضيات العقل والحكمة !